٨ ـ تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد مبشي

الفصل الأول

وقد استمر إرياط يتوغل في اليمن بعد موت ذي نواس الحميري « فقتل ثلث رجالها وخرب ثلث بلادها ، وبعث إلى النجاشي بثلث سباياها ، ثم أقام بها فضبطها وأذلها [1] ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبش ، وكان في جنده حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ؛ ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرياط « إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فابرز لي وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده » فقبل أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحماً حادراً وكان ذا دين في النصرانية ؛ وخرج إليه ارياط وكان رجلاً عظيما طويلاً وسيما ، فرفع إرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخه ، فوقعت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته ، فسمي أبرهة الأشرم ، وحمل غلام أبرهة عَتْوَدَة على إرياط فقتله ، فملك أبرهة ، ثم كتب الى النجاشي : « أيها الملك إنما كان إرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك ، وكلٌّ طاعته لك ، إلا أني كنت أقوى منه على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرض اليمن ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه » فثبته النجاشي . ثم إن أبرهة بنى « المكيس » بصنعاء لم ير مثلها في زمانها ، ثم كتب إلى النجاشي : « إني قد بنيت لك كنيسة ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب » فلما كمت الألسن ذلك قام رجل من بني فُقَيم : فخرج إلى المكيس فقعد فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فحلف ليسيرن الى البيت فيهدمه » ولكن الفشل الذريع الذي منيت به هذه الحملة التي وقعت عام الفيل (سنة ٥٧٠ م) لم يحرر بلاد اليمن في الحال من نير الأحباش ، إذ أن ولدي أبرهة يكسوم ومسروق كانا عبئاً ثقيلاً على العرب فنجوا منه . وقام في ذلك الحين أحد أشراف حمير واسمه « سيف بن ذي يزن » مستحثا الهمم ، ولكن ضاعت دعوته إياهم أدراج الرياح . ولما لم ير مساعدة من قومه وجه وجهه شطر الاستعانة بغوث أجنبي ، وتردد بين قيصر الروم وكسرى فارس ، فمضى أولاً الى القسطنطينية فردّه القيصر خائباً ، فطلب من والي الحيرة العربي الذي كان خاضعاً لفارس أن يقدّمه الى بلاط المدائن ؛ ولكن كيف استطاع أن يكسب عطف الملك الساساني أنو شروان الملقب بالعادل حتى أرسل معه ثمانمائة مقاتل من نزيل السجون ممن أطلق سراحهم ؟ وكيف أبحروا معه الى اليمن وعلى رأسهم قائد طاعن في السن ؟ وكيف أحرقوا سفنهم واستمدوا من اليأس قوة ، وكيف هزموا الأحباش هزيمة منكرة وطردوهم واستردوا اليمن وجعلوها ولاية فارسية [1] . . . كل هذا يسوقنا الى سرد قصة طويلة آثرت تخطيها وإغفالها في مثل هذا المجال ، لأنها تتصل بتاريخ الفرس أكثر من اتصالها بتاريخ الأدب العربي ، تلك الأمور التي قامت — كما رجع نلدكه — على أخبار لقنها الغزاة الفرس الذين

(١) وفي ذلك قال بعضهم ذاكراً ما ساق إليهم دون ذو شعبان من أمير الحبشة : « لا كدوس ولا أعلاق رحله » (المترجم)

الكتاب إنما كان موجهاً إلى العلماء الغربيين لا للأندية المثقفة من أبناء الشرق أيضا

وإني أوجه أنظار الأساتذة العاملين على إخراج بقية أجزاء الكتاب ألا يتورطوا فيما تورط الأستاذ جويتاين من مسألة المقدمة والذيل التي أغفل فيهما العربية إغفالاً يكاد يكون تاماً

والذي نتمناه من صميم الفؤاد أن يبادر بقية العلماء القائمين بمراجعة الكتاب باخراج الأجزاء الأخرى حتى يستفيد العالم العربي عاجلاً من كتاب أنساب الأشراف الذي يعد بحق من أمهات المصادر لكل من يبحث في عصر ظهور الاسلام وفجره وضحاه

اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)

(١) يجد القارئ بياناً وافياً وتفصيلا شاملا لهذه الأمور كلها في كتاب تاريخ الفرس الأدبي Lit Hist of Persia للاستاذ براون ج ١ ص ١٧٨ — ١٨١

استوطنوا اليمن لأبنائهم الأشراف ، الذين يسميهم العرب الأبناء أو بنى الأحرار

وإنا لنترك الآن مملكة اليمن وقد تهاوت دعائم قوتها ودالت دولتها وسقطت من علياء مكانتها الى الأبد ، ونعود ناحية الشمال فى دراسة التاريخ العربى :

الفصل الثانى

تاريخ العرب الوثنيين وأساطيرهم

يسمى المسلمون الفترة الواقعة منذ فجر التاريخ العربى حتى ظهور الاسلام بالجاهلية ، وقد ورد هذا اللفظ فى أربع فقرات فى القرآن ، ويقصد به عادة « الجهل » ، وإن كان جولدزيهر قد أوضح أن المدلول الذاتى لكلمة « جهل » (الذى اشتقت منه الجاهلية) عند شعراء ما قبل الاسلام لا يقصد به « عدم المعرفة » أو « الوحشية » و « الهمجية » ، وليس المعنى المضاد لكلمة « علم » ، ولكنه عكس معنى حلم المعبّر عن التهذيب الأدبى عند الرجل المثقف . « وحينما يقول المسلمون إن الاسلام قضى على طبائع وعادات الجاهلية فانهم يقصدون بذلك العادات المستقبحة ، وهذا الخلق الهمجى الذى تفترق به الوثنية عن الاسلام ، وبالمستهجن من الطباع التى جدّ محمد (ص) فى استئصالها من نفوس قومه : كحمية الجاهلية ، والعصبية القبلية ، والجد فى طلب الثأر ، والحقد ، وغير هذا من طبائع الوثنية المستهجنة التى قضى عليها الاسلام » [1]

وإن المصادر التى نستمد منها صورة حياة هذه الفترة لتندرج تحت أربعة أبواب كما يلى :

(١) القصائد والمقطعات الشعرية التى وإن لم تكن قد دونت فى ذلك الحين إلا أنها ظلت محفوظة بالرواية الشفهية ، ثم كتب معظمها بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهى فى الحقيقة الأثر الوحيد الذى بين أيدينا عن تاريخ العصر السابق للاسلام ، وتتضح أهميتها من القول المأثور « إن الشعر ديوان العرب وجامع شتات المحاسن التى سلفت لهم » وسيرى القارئ فى الفصل التالى بعضاً من الشعر العربى فى تلك الفترة

(٢) الأمثال وهذه أقل قيمة من الشعر ، إذ قلما تفسر نفسها بينما يكون الشرح المرفق بها من عمل الأدباء الذين يدأبون على تفسيرها ، ولو أنه فى حالات عدّة يُؤتى بمعانيها ومقصودها على سبيل الحدس ، كما نسيت الظروف التى بعثتهم على إرسالها ، وبالرغم من هذا فقد كنا نخسر شيئاً جسيما لو لم تكن بين أيدينا المجاميع الشهيرة للمفضل بن سلمة [1] (المتوفى حوالى ٩٠٠ م) والميدانى [2] (١١٢٤ م) التى تضمنت إشارات عجيبة وأخباراً تلقى بصيصاً من النور على كل جوانب الحياة التى سبقت ظهور الاسلام

(٣) الأخبار والأقاصيص : لما لم يكن للعرب الوثنيين — على العموم — معرفة بفن الكتابة الخطية واستعمالها فقد كان من المستحيل أن تقوم للنثر — باعتباره فناً أدبيا — قائمة فيهم ، ومع ذلك فان بذور النثر الأدبى يمكن إرجاعها الى عصر الجاهلية ، وعدا المثل والخطبة نجد عناصر التاريخ والقصة فى القصص النثرى الذى كان يقدمه الحفاظ والرواة لتوضيح موضوع أغانيهم ، وفى القصص التى تعدّد مآثر القبائل وأبنائها . وإن العدد الوفير من هذه القصص (التى يرجع بعضها الى أصل حقيق والآخر يحمل طابع الخرافة) لثبوت فى ثنايا المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية التى وُضعت أيام الدولة العباسية وخاصة فى كتاب الأغانى [3] لأبى الفرج الأصفهانى (٩٦٧ م) وهو مجموعة ثمينة قامت على دراسة الشخصيات [4] الأدبية الكبيرة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وقد ضاعت الكتابات الأولى لهؤلاء الأدباء والنقاد دون استثناء ، ولولا اقتباسات الأغانى الكثيرة لما كان فى متناول أيدينا نماذج من آثارهم . ويقول ابن خلدون عن هذا السفر : « إن أبا الفرج جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنّون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب

(١) Goldziher Muhammedanische Studien, Part I, P. 225.

(١) لقد أصبحت مجموعة أمثال المفضل بن سلمة الكوفى المسماة « بالفاخر » فى متناول اليد إذ طبعها طبعة أنيقة مستر C. A. Stotey فى ليدن ١٩١٠

(٢) طبع أمثال الميدانى وترجمتها اللاتينية Freytag فى ٣ مجلدات (طبعة Bonn ١٨٣٨ — ١٨٤٢ م) تحت اسم Arabum Proverbia

(٣) طبع كتاب الأغانى فى بولاق مصر (١٢٨٤ — ١٢٨٥ هـ) فى عشرين مجلدا ، وقد أضاف اليها Brünnow مجلدا بأسماء الأعلام الذين ترجم لهم أبو الفرج فيه ، وهو مطبوع فى ليدن عام ١٨٨٨ م . وتقوم دار الكتب المصرية حديثا بطبع الأغانى طبعة منقحة مع ملاحظات نقدية

(٤) هكذا يسميهم سير شارلز ليل

وأوفاه ، ولايعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلم وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها [١]

ولن أحاول فى الصفحات التالية أن أضع فى ترتيب واتصال هذه الأشعار والقصص المضطربة التى رسخت فى الأذهان واندس بين ثناياها جميع ما نعرفه عن بلاد العرب فى العصر السابق للاسلام ؛ إذ أنجز هذا خير إنجاز وفى دقة عجيبة كوزان دى برسيڤال [٢] فى كتابه : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme وليس هناك ثمت جدوى مطلقاً من أن أسوق للقارئ موجزاً مقتضباً لهذا العمل القيم ، والأجدى — كما يتراءى — أن أسوق للقارئ بضع ظواهر واضحة بينة تمثل هذه الفترة كما وضعها العرب أنفسهم . وإذا كانت الأحاديث العربية بموزها الدقة التاريخية فانها فى مجموعها تكشف القناع عن الروح السائدة فى العصر المظلم الذى تستحضره من غياهب الزمن السحيق وتبرزه أمامنا

وفى حوالى منتصف القرن الثالث المسيحى كانت تتاخم بلاد العرب من الشمال والشمال الشرقى امبراطوريتان تتنافسان فى الزعامة هما دولة الروم ودولة الفرس اللتان تفصلهما صحراء الشام عن بعض ؛ ولما رأى الفرس أنهم عرضة لغزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات بين حين وآخر على الحدود ، ويستولون على ما يصل أيديهم من الغنائم ، ثم يختفون بنفس السرعة التى اتسمت بها إغاراتهم ، لما رأوا ذلك وجدوا الضرورة تدعوهم إلى إيجاد حامية على طول حدود هذه الصحراء ، وبهذا أمكن صدّ غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، ولكن تبيّن أن القوة علاج غير ناجع تماماً ، فضلاً عما تكلفه الدولة ، وعملاً بالمثل القائل : « فرّق تسد Divide et impera » فقد ارتؤى ادخال بعض القبائل الغيرة فى خدمة الامبراطورية . ومما أدّى إلى عدم قيام البدو بأى اضطراب دفع شىء من المال لهم بانتظام ، واستمدادهم على الدوام للغزو الفجائى إذ كان الروم والفرس فى هذه الأيام فى حروب لا يخمد أوارها ولا يخبو ضرامها ، ومن ثم فقد حاربوا كمحالفين أحرارا تحت لواء أمرائهم أو شيوخهم . وبهذه الوسيلة ظهرت أسرتان عربيتان هما دولة الغساسنة فى سورية واللخميين فى الحيرة غرب الفرات ، وكانتا فى نزاع دائم واصطدام ونزال ، حتى ولو لم تكن تدفعهما من الخلف قوة الامبراطوريتين ، وسرعان ما ظهرت كفاية العرب الحربية ومهارتهم حينما درّبوا على الأسلحة . وفى أثناء حرب ڤاليران مع كسرى سابور الأول خرج شيخ عشيرة عربى فى « تدمر » ويدعى أذينة وسار على رأس قوة كبيرة ضد الغير ونازله وفرّق شمله وطرده من سورية واقتفى آثاره حتى ردّه الى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥ م ولقد قدر الامبراطور جاليانوس Gallienus صنيعه الباهر فأنعم عليه بلقب Auguatus العظيم » ، ولقد كان فى الحقيقة السيد المطاع فى الكتائب الرومانية فى الشرق ، ولكنه قتل غيلة فى العام التالى وكان فى زوجته زينوبيا (الزباء) خير خلف ، فأخذت على عاتقها تشييد امبراطورية شرقية ضخمة ، ولم يكن نجاحها أعظم من نجاح كليوپاترا فى مثل هذه المحاولة ، ولكن حدث ما ليس فى حسبانها إذ انتصر أورليان واقتيدت « ملكة الشرق » المتكبرة أسيرة أمام عربته فى شوارع رومة عام ٢٧٤ م

(يتبع)

حسن محمد حبشى

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠) ص ٥٠٤

(٢) وقد طبع فى باريس (١٨٤٧ — ١٨٤٨) فى ٣ مجلدات

لجنة التأليف والترجمة والنشر

النظريات والأوضاع الحديثة
للنظام الصناعى

تأليف ج . د . ه . كول

وترجمة الأستاذ محمد عبد الباري

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذه الرسالة ضمن سلسلة المعارف العامة

وهى تبحث فى أهم المشاكل الاقتصادية السياسية الصناعية وتعرض لحلولها المختلفة وما شرع للعمال على يد الاشتراكيين وغيرهم

وثمنه ٦ قروش صاغ عدا أجرة البريد ، ويطلب من اللجنة ومن المكاتب الشهيرة